مهند عبد الحميد (*)

دور الكتب المدرسية في تشكيل ذاكرة جمعية إسرائيلية مهيمن عليها!

(قراءة في كتاب جديد حول فلسطين في كتب التدريس الإسرائيلية)

(*) كاتب وصحافي فلسطيني- رام الله .

(*) اسم الكتاب: «فلسطين في الكتب المدرسية في إسرائيل: الأيديولوجيا والدعاية في التربية والتعليم»

(*) المؤلف: نوريت بيلد – إلحنان، محاضرة في مادة تعليم اللغة في كلية التربية في الجامعة العبرية، القدس

(*) إصدار: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية- مدار، ٢٠١٢

لا وجود لفلسطين وشعبها في الكتب المدرسية الإسرائيلية إلا باعتبارهما فائضا عن حاجة المكان و«سكانه الجدد». وكتاب «فلسطين في الكتب المدرسية في إسرائيل» للأكاديمية الإسرائيلية نوريت بيلد – إلحنان، قدم لوحة هي الاكثر وضوحا ودقة عن دور الكتب المدرسية الإسرائيلية في تشكيل ذاكرة جمعية دائمة ومهيمن عليها تمكن الدولة من السيطرة على عقول الأجيال الإسرائيلية المتعاقبة.

الكتاب ذو المستوى الأكاديمي الرفيع يحفز قارئه على التأمل في واقع مركب بعناية وبإشراف ووصاية على العقول، ويساعده على فهم البناء النفسي والثقافي للشخصية الإسرائيلية وطبيعة الدولة.

للكتاب تأثيرات مهمة ليس على صعيد معرفي وحسب بل وحول النظر للصراع الفلسطيني – الإسرائيلي من زوايا لم نعتد التوقف عندها، كاستخدام العلوم والحداثة في تصنيع ثقافة رجعية عنصرية ورأي عام يتبنى تلك الثقافة عن ظهر قلب. والكتاب يسلط الأضواء على جذور الرفض الإسرائيلي للعملية السياسية والسلام مع الشعب الفلسطيني، وفي فهم لماذا يتم تقويض مقومات الحل السياسي على الأرض، وفي الإجابة الأعمق على أسئلة من نوع: لماذا لا توجد معارضة إسرائيلية حقيقية تصطدم مع الرواية الرسمية وتفتح جسورا مع الشعب الفلسطيني؟ لماذا بقيت العضوية في الحزب الشيوعي الإسرائيلي ضئيلة من طرف غير المواطنين الفلسطينيين وبقي الحزب محسوبا على القوائم العربية ؟ ولماذا تصالح حزب العمل مع المعسكر الذي دعم موضوعيا قتل اسحق رابين والتحق أكثر بثقافة إقصاء الشعب الفلسطيني؟.

عرفت لماذا كان جنود الاحتلال في أثناء احتلال رام الله العام ٢٠٠٢ يضيقون ذرعا من الفلسطيني المتقدم، سواء لجهة مستوى التعليم والثقافة، أو لجهة امتلاكه لوسائل وأدوات الحداثة والتكنولوجيا واللغات الأجنبية، ولماذا استاء الجنود من صورة الفلسطيني المغايرة للصورة النمطية (البدائية) التي في أذهانهم؟. والأهم أن الكتاب يكشف سبب الضعف في الاداء التفاوضي الفلسطيني الناجم عن ضعف الجانب المعرفي بثقافة الاقصاء وبقاء المفاوض في موقع دفاعي نمطي.

أضافت الأكاديمية بيلد– إلحنان للمكتبة الفلسطينية والإسرائيلية عملا في غاية الاهمية، لا يقل أهمية عن كتاب (التطهير العرقي في فلسطين)– إيلان بابه، وكتاب (اختراع الشعب اليهودي) – شلومو ساند، وكتاب (مناطق محظورة) – إيال وايزمان. وكتابها «فلسطين في الكتب المدرسية الإسرائيلية» يعتبر وثيقة تقدم دلائل وبراهين ساطعة على انكار الكتب المدرسية للشعب الفلسطيني ورفض حقوقه الوطنية المشروعة والتنكر لحقوقه الانسانية ايضا، وتسلط الاضواء على التمييز والعنصرية الفاقعتين في التعامل مع شعب بأكمله في صيغة تحريض منهجي ودائم. خلافا لذلك ثمة ادعاء إسرائيلي يردده الساسة الأميركيون والأوروبيون «بأن الفلسطينيين يُعلمون أطفالهم أن يكرهونا ونحن نعلم أحبب جارك». لا يوجد أهم من هذا الكتاب في كشف مهزلة «حب الجار» التي تُعلمها كتب المدارس الإسرائيلية للأطفال الإسرائيليين. أما التحريض الفلسطيني فقد تحققت منه دراسة صادرة عن مجلس المؤسسات الدينية في الأراضي المقدسة مؤخرا في شباط ٢٠١٣ وأفادت بعد طول تمحيص بخلو الكتب المدرسية الفلسطينية من كل أشكال التحريض السافر. الغريب في الامر ان الدوائر الرسمية الإسرائيلية تمارس نوعا من إسقاط التهمة على الجانب الفلسطيني، وتنجح في وضع الشعب والقيادة في موقع المتهم، ويعود ذلك لاسلوب إدارة التفاوض وضعف الخطاب الذي يقدمه المستوى السياسي وعدم الاستناد إلى جهات اختصاص تقدم عناصر السياسة الفلسطينية وتبلور الردود. وأعتقد ان هذا الكتاب سيكون أهم سند لوضع دولة إسرائيل في موقع المتهم المحاصر بمنظومة من القرائن الدامغة.

الكتب المدرسية: تناولت الكاتبة بالبحث والتحليل عشرة من كتب التاريخ التي تدرس في المدارس الإسرائيلية، وستة كتب مدرسية تدرس في مادة الجغرافيا وكتاب واحد في الدراسات المدنية، أُلف لكي يدرسه الطلبة اليهود والعرب في المدارس الثانوية. نُشرت هذه الكتب في الفترة الممتدة بين ١٩٩٦– ٢٠٠٩.

المنهجية: تستند الكاتبة إلى مبادىء التحقيق الاجتماعي

السيميائي الذي ينظر للظاهرة بعمق ولا يكتفي بنتيجة علمية إلا بعد التحقق من سلامة فرضيتها وصحة التفكير الذي أفضى اليها. وهي مبادىء تعرض افكارا يستفاد منها في صياغة الأسئلة، وتوظف مناهج التحليل المتعدد الوسائط وتحليل الخطاب. وتتطرق إلى النص اللفظي بالاضافة إلى الوسائط البصرية والتصميم والعلاقات القائمة بين العناصر المختلفة. وتمثل اللغة أحد الانظمة التي أمدت الكاتبة بالمصادر السيميائية وتشكيل المعاني وصناعتها.

نزع الشرعية عن الشعب الفلسطيني

تنطلق الكتب المدرسية من موقف إسكات التاريخ الفلسطيني عبر إقصاء الرواية التاريخية الفلسطينية، وتقدم الفلسطينيين كجماعات سلبية متطرفة، نازعة الصفة الشرعية عن وجودهم، ونازعة الصفة الانسانية عن حياتهم. النصوص تطلق عليهم صفات (إرهابي، لاجئ ومزارع بدائي أو بدوي) ولا تشتمل على اي جانب ثقافي اجتماعي ايجابي من حياة الفلسطينيين، لا تتحدث مثلا عن الأدب والشعر والفن والعمارة والتاريخ والزراعة ولا الاعراف والتقاليد ولا تقدم صورا طبيعية. لا تعترف الكتب بوجودهم كشعب، فتطمس حياتهم على أرض فلسطين. وتختصرهم بعبارات قليلة من نوع: «وقعت هذه الأرض في أيدي المسلمين في القرن السابع وهو ما ساهم في تشكيل ثقافتها وأسلوب حياتها على مدى ١٣٠٠ سنة»، دون تعريف بتلك الثقافة، ويقول النص: يزعم الفلسطينيون أن جذورهم أعمق في هذه الأرض «ونما نوع من الصهيونية الفلسطينية» لكن الكتب تقدم الجنسية الفلسطينية على أنها مزورة وخيالية ومصطنعة، هكذا تتجاهل الكتب المدرسية حقيقة وجود شعب فلسطيني له جذور تاريخية، تتجاهله كعامل ثابت على أرض فلسطين، تأثر بالعوامل المتغيرة أي بالفاتحين والغزاة في كل عصر، لكنه بقي الطبقة الراسخة من طبقات تعاقب الحضارات الانسانية على فلسطين.

بعد ذلك يتم اتباع ثلاث استراتيجيات في تصوير الفلسطينيين باعتبارهم آخرين غرباء بعيدين دخلاء، من خلال الاستخدام التمييزي للمسافة التي تفصل المشاهد الإسرائيلي عن صورة الفلسطينيين، بهدف جعلهم غرباء على الإسرائيليين كونهم أدنى درجات وبوصفهم أشياء، ويتم النظر اليهم من أعلى بحيث يكونون تحت مستوى النظر. وظيفة ذلك التقديم البصري هي تكريس عدم التفاعل معهم كنتيجة منطقية لعدم الاعتراف بهم.

التطهير العرقي وخلق مشكلة اللاجئين

طرد مئات آلاف الفلسطينيين هو الاسم الحركي للتطهير العرقي، والكاتبة تتولى تفكيك النصوص وإعادة قراءتها كاشفة مرة أولى تناقضات النص مع ما جرى في الواقع، ومرة أخرى مع نصوص سابقة. في البداية كانت الكتب المدرسية تلتزم بالرواية الرسمية التي تنحي باللائمة على القيادة العربية وتحملها المسؤولية الكاملة عن المصيبة التي حلت باللاجئين. لكن الرواية التي قدمت للجيل الثالث عدلت بعض الشيء. فقد تحدثت الكتب المدرسية عن طرد خلال المعارك. وبالطبع الطرد جاء نتيجة للحرب وليس ثمرة خطة أعدتها الحركة الصهيونية. وربطت الكتب «الطرد» أو الفرار الجماعي للعرب بالحاجة الماسة إلى تهويد البلاد وضمان أغلبية يهودية تنفيذا للوعد الإلهي. وفي هذا السياق جرى تبرير عمليات تدمير مئات القرى الفلسطينية ومنع اصحابها من العودة، كما جرى تبرير وشرعنة المجازر طالما كانت وظيفتها تهويد البلاد وضمان أغلبية يهودية. الطرد شر لا بد منه، ومأساة اللاجئين فعل من أفعال القدر غير مرتبطة بخطة التطهير العرقي (خطة د) وبالنتيجة لا تتحمل إسرائيل مسؤوليتها. المسؤولية تتحملها الدول العربية هذه المرة لأنها أحجمت عن دمج اللاجئين في بلدانها وسعت إلى تخليد أوضاعهم المزرية، خلافا لما فعلته دولة إسرائيل التي استوعبت اللاجئين اليهود الذين «طردوا» من الدول العربية.

يعاقب الشعب الفلسطيني مرة بالتطهير العرقي، وبعد أن يتحول أبناؤه إلى لاجئين يفقدون حقهم في العودة لانهم «تخلوا عن أرضهم ولا يستحقون ان يستعيدوها». والمطلوب اقناع الاجيال الشابة الفلسطينية بأنهم فقدوا حق العودة، بسبب هجر أجدادهم للارض من جهة وبسبب إجماع الإسرائيليين على حرمان اللاجئين من حق العودة. الرواية الإسرائيلية تضع نفسها دائما في تناقضات فاقعة، فعندما حاول الآباء والأجداد الفلسطينيون العودة إلى ديارهم، قالوا تسلل قرويون – آلاف – لم يكن من بينهم سوى عدد ضئيل من «الإرهابيين»، وكان الرد عليهم بقتلهم قتل ٢٧٠٠– ٥٠٠٠ متسلل. وإمعانا في تبرير القتل يختفي ذكر القرويين من كتاب نافيه ويتحول جميع المتسللين إلى «إرهابيين». إن تصوير الفلسطينيين على أنهم إرهابيون يساهم في شرعنة

طرد السكان الأصليين وقتلهم. وفي المحصلة الأخيرة، وبعد أن وافق مفاوضون إسرائيليون على عودة رمزية لا تتجاوز ٦٥– ٧٠ ألف لاجئ فلسطيني، لكن أيهود أولمرت رفض عودة أي لاجئ.

جغرافيا العداوة والإقصاء

توظف الكتب المدرسية الإسرائيلية الوسائط البصرية العلمية من أجل غرس الأيديولوجيا السياسية والأفكار التمييزية في أذهان الطلبة. وتحدد الخرائط المضللة والصور المهينة التي تشكل جزءا لا يتجزأ من الخطاب المتمركز حول الإثنية المفهوم الذي يشكله الطلاب حول «بلدهم» وجيرانهم. تستخدم الجغرافيا لغايات ترسيخ القومية الإثنية والطابع القومي الاثني. ويجري في هذه العملية طمس وجود الفلسطينيين ومحوه من المشهد الطبيعي ومن عالم حياة البلد. تعلم كتب الجغرافيا الطلبة اليهود النظر إلى أنفسهم على أنهم أسياد البلاد، وتعلمهم السيطرة على سكانها وطبيعتها وفضائها، وتبرر عمل أي شيء ضروري لتوطيد هيمنة اليهود.

ويمكن ملاحظة ذلك عبر:

- إن الأساس الأيديولوجي لمادة الجغرافيا هو الرسالة الصهيونية المتعلقة باستعادة الوطن وإعادة الاستيطان فيه على يد أبناء إسرائيل الذين عادوا إليها بعد ألفي عام في المنفى، وها هم يملكون الحقوق التاريخية الحصرية فيها. إن شكلا حصريا من القومية الإثنية اضفى صفة السكان الأصليين على اليهود بعد مرور ٢٠٠٠ عام وطمس وجود السكان الأصليين الفعليين (الشعب الفلسطيني) وتلك مفارقة عجيبة.
- لا تقدم الكتب المدرسية سوى قدر ضئيل من المعلومات حول المكان/ الوطن للشعب الفلسطيني، ولا تتعرض لحياته وللظروف الاجتماعية والتغيرات خلال الألفي عام. وباستخفاف علمي منقطع النظير تختزل ألفي سنة من الحضارة في تسع كلمات. مقابل ذلك تسهب الكتب المدرسية في تمجيد إنجازات الصهيونية كتذليل الصحراء وتطويعها، وإعادة مجد الغابات الذي ذكرها الكتاب المقدس.
- تقدم الكتب خرائط لا تمت في معظمها إلى الواقع بصلة، تقدم رسوما وصورا بالاستناد للكتاب المقدس والوعد الإلهي الذي يمنح اليهود المنطقة من نهر الفرات إلى البحر المتوسط. خريطة إسرائيل لا تظهر الحدود المعترف بها دوليا، بل تشمل الأراضي الفلسطينية أخذا بالقول «كل مكان تدوسه بطون اقدامكم يكون لكم». الخريطة تجسد الوعد الالهي ولا تعترف بالقانون الدولي وقرارات الشرعية الدولية. وهنا يتم شرعنة احتلال الأراضي الفلسطينية بالاستناد للكتاب المقدس، واستباحة الأرض بالاستناد لوعد إلهي يترافق مع إقصاء السكان الأصليين وتصويرهم كعناصر لا شخصانية ومشكلات وتهديدات، كونهم بدائيين ومتطفلين جديرين بالازدراء.
- تقدم كتب الجغرافيا هرما سكانيا يقسم سكان إسرائيل إلى يهود وآخرين مقابل العرب. العربي يطلق شاربيه ويرتدي جلابية ويضع كوفية ويسوق جمله خلفه، والمرأة ترتدي الزي التقليدي وتجلس القرفصاء على الأرض. أما صور اليهود فهي من الطراز الغربي. الكتب تضع الطلبة أمام مشهد التخلف العربي مقابل الحداثة الإسرائيلية. صورة المستوطنة تقترن بالابتكار والحداثة والطبيعة الجميلة، مقابل صورة القرية الفلسطينية المقترنة بالتخلف والخمول وبنية تحتية غير متطورة، وبسكان بدائيين يرفضون العيش في البنايات المرتفعة، ويمانعون التنازل للصالح العام. وتختفي الناصرة وعكا وام الفحم (المدن العربية) داخل إسرائيل.
- تتعامل الخرائط مع إسرائيل الكبرى الموعودة كوحدة جغرافية كاملة تضم إسرائيل والأراضي الفلسطينية بما في ذلك «مناطق أ» التي تسيطر عليها السلطة الفلسطينية وأجزاء من الأردن ومن لبنان وسورية، مستبدلة الشرعية الدولية بالشرعية الإلهية. المناطق الفلسطينية تعرف على أنها مناطق لا تتوفر بيانات بشأنها ويتم تغييب المواقع الجغرافية وأسمائها ولا يظهر منها غير المستوطنات، وخريطة القدس لا تظهر أي مواقع ثقافية أو مبان إدارية فلسطينية ولا يظهر من القدس الشرقية غير جبل الهيكل وحائط المبكى. التغييب هنا هو تعبير بصري عن شعار «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض». النتيجة الحتمية التي يخرج بها الدارس للخرائط هي: رفض الاعتراف بالحدود الدولية المقترن بعدم سريان القرارات الدولية ونفاذها على إسرائيل.

شرعنة المجازر

كيف قدمت الكتب المدرسية المجازر الدموية التي ارتكبها العسكر كمجزرة دير ياسين، مجزرة قبية، مجزرة دير ياسين؟

المجازر كانت مجرد معارك روتينية أو عمليات عسكرية كانت تشكل انحرافا عن الخط، لكن الكتب تشرعنها بسبب النتائج الإيجابية التي أفضت اليها، وهي إنشاء الدولة والحفاظ على أمن الإسرائيليين. وتستند أساليب شرعنة المجازر التي تعتمدها الكتب المدرسية في جانب كبير إلى المنفعة، وباعتبارها نقطة انطلاق نحو إحداث التغييرات الايجابية.

كانت المجازر مفيدة بالنسبة لإسرائيل، فمجزرة دير ياسين أسهمت في تسريع وتيرة إخلاء المدن والقرى العربية. ومجزرة قبية أرست دعائم الأمن وأعادته إلى المستوطنات ورفعت معنويات الجيش. ومجزرة كفر قاسم تسببت في صدور حكم مستنير وفي إقصاء الحكومة العسكرية. هكذا تتم شرعنة نتيجة المجزرة وفي السياق تنزع السمة الشرعية عن الفعل أو عن الفاعلين، باعتبارهم منشقين أو لا يعلمون بوجود أصحاب البيوت داخلها، أو محاولة إنكار مجزرة كفر قاسم. والأهم أن الضحايا الفلسطينيين لا يحظون بأي اهتمام أو تضامن أو عاطفة انسانية، في مقابل إبراز شجاعة القضاة ونزاهتهم الأخلاقية. لكن الكتب تتحاشى ذكر إطلاق سراح القتلة وإعادتهم إلى مناصبهم بعد فترة وجيزة، ولا تذكر العقوبة «المسخرة» التي فرضت على قائد العملية وهي تغريمه بليرتين!

إن تفسير المجازر وإعادة تفسيرها يتمان من خلال إقصاء الرواية الفلسطينية، وعدم التطرق للخسائر والأذى والأضرار الفادحة التي لحقت بالضحايا، «وتقبل الألم الكبير الذي ألم بهم إذا كان يحول دون وقوع ألم أكبر بنا». وإن عدم إثارة التساؤلات حول ما جرى، يؤدي إلى قبول وجهة نظر وحيدة باعتبارها حقيقة مسلما بها.

بعد الإعداد الايديولوجي للطلبة في المدارس الإسرائيلية، البعيد كل البعد عن الأساليب المعرفية في البحث والدراسة. وبعد النجاح في غرس أفكار تعصبية وعنصرية، يلتحق الطلبة الإسرائيليون بالخدمة العسكرية بناء على قناعتهم بأن التعاطف يرتبط بالعرق أو الدين وليس له مكان في العلاقات بينهم وبين جيرانهم الفلسطينيين. وينطلق جيل بعد جيل من مفهوم راسخ يقول: إن المنفعة هي المعيار الوحيد الذي يجب أن يوجه سلوكهم.

السؤال الذي تطرحه الكتب: هل إسرائيل دولة إثنوقراطية، أم إثنية ديمقراطية، أم دولة ديمقراطية؟ يجيب نظام التعليم بأن إسرائيل دولة ديمقراطية و«وحيدة» في المنطقة، وتقر دول الغرب بذلك.

لكن الواقع الذي تستعرضه هذه الدراسة يقول العكس. فالإثنية وليس المواطنة هي العامل الحاسم الذي يعتمد في تحديد الحقوق وتوزيع الموارد. اليهود وحدهم يملكون حقوق المواطنة الكاملة. الثقافة الإسرائيلية تقدم على أنها أسمى، وتشرعن التمييز أمام القانون، وعدم المساواة في حقوق الملكية والحركة والإقامة والعمل واختيار الوظيفة والتعليم والسكن والخدمات العامة وفي الحصول على الجنسية. وقد لاحظ تقرير خبراء الأمم المتحدة بوجود تحيز وتمييز عنصري يحرم الفلسطينيين من المعاملة المتساوية، ما يؤدي إلى ترسيخ النظرية العنصرية. وقدم فريق الخبراء مجموعة من التوصيات لتجاوز ذلك. غير أن تلك التوصيات ذهبت أدراج الرياح.

وكان خبراء في القانون الدولي قد قدموا نصا اثبتوا فيه أن الصهيونية حركة عنصرية، وقد استندت الجمعية العامة إليه في اتخاذ قرارها التاريخي العام ١٩٧٥ الذي اعتبر الحركة الصهيونية حركة عنصرية، غير أن التراجع عن القرار جاء لتشجيع إسرائيل على دخول عملية السلام مع الشعب الفلسطيني. فذهب القرار الدولي وبقيت العنصرية. واعترفت منظمة التحرير بإسرائيل لتشجيعها على الاعتراف بالدولة الفلسطينية، ولكن بقي الاعتراف، وبلع الاستيطان الدولة الموعودة. من المنطقي أن يعاد النظر في كل هذا.

في الختام أقترح أن يدرس هذا الكتاب في الجامعات الفلسطينية والعربية.